مصطفى صادق الرافعي علم في أدَب اللغة العربيَّة ودراساتها ، نال ألقاباً متعدّدة على إنتاجه الفكريّ والأدبي ، فهناك من أطلق عليه : (أديب العربيّة)[1] ومن سماه (الأديب الإمام) [2] ومن سمّاه) شاعر الشرق (على قصيدته في اللغة العربية ، ونال لقب) بيك (على نشيد) اسلمي يا مصر (.

كتب عنه الكثيرون ، ودارت حوله دراسات . فمن بين الذين قدموا دراسات عنه : حسنين حسن مخلوف ، عبد الستار السطوحي ، عمر الدسوقي ، محمد سعيد العريان ، مصطفى الشكعة ، مصطفى نعمان البدري ، وآخرون . كما كتب عنه آخرون كثيرون في الصحف والمجلات المصريّة وغيرها .

ولد الرافعي في) بَهْتيم (من القليوبيّة في مصر في الأول من رجب سنة 1298هـ الموافق 30 أيار 1881م .

والده الشيخ عبد الرازق الرافعي ، كبير القضاة الشرعيين في محافظات مصر ، ويمتدّ نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأمّه أسماء ابنة الشيخ أحمد الطوخي الحلبي الذي كان يدير تجارته بين مصر والشام .

نشأ في بيت دين وعلم ، وكان بيتهم مقصد العلماء ، وندوة المناظرات الدينية والأدبية ، ينهل منها الرافعي علماً وأدباً، وقد ظهرت بوادر نبوغه منذ طفولته فكان موضع اهتمام كبير من والديه .

بدأت دراسته بالكُتّاب وحفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين .

دخل المدرسة الابتدائية في دمنهـور وهو في الثانية عشرة من عمره ، ثم انتقل مع والده إلى المنصورة حيث نال الشهادة الابتدائية من مدرستها ، وظلّت هي الشهادة الرسمية الوحيدة في عمره كله بسبب ظروفه الصحّية التي أورثته الصمم فيما بعد ، وبقي يُعامَل من حيث الوظائف وميدان العمل على أساسها ، فلم يتسنَّ له التدريس في الجامعة ، فأثر ذلك في نفسه الطموحة .

ولقد جَدَّ في طلب العلم من المصادر المتوافرة أمامه : مجالس أبيه ، مكتبة أبيه ، مكتبة المعهد الأحمدي ، مكتبة الشيخ القصبي في طنطا ، ومكتبة دار الكتب بالقاهرة .

وكان لا يترك شيئاً مما يُطبَع أو يُنْشَر وتمتدُّ إليه يده إلا درسهُ وقرأه ، وكان يعينه بعض الشيوخ والمؤلفين وأصدقاء والده .

وكان لا يتكلم إلا اللغة العربيّة الفصيحة مما أثار دهشة زملائه ، وربما أثار حسدهم .

وبحث عن الوظيفة فما تيسّر له إلا وظيفة كاتب في ديوانيّه المحاكم ، فنال منها خبرة وعلماً وزاداً .

---

1 - مصطفى نعمان البدري : الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد : ص : 12 .
2 - السابق : 132 .

ولكنه كان يضيق صدره بعمل الوظيفة ، ولا يحافظ على مواعيد العمل ، ويشعر أنها قَيد عليه معّوقة لطموحه . فتخلّى عنها فيما بعد وتفرّغ لطلب العلم والكتابة والتأليف .
تزوج من السيدة نفيسة البرقوقي أخت صديقه الأثير الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ، فكانت نعم الزوجة تعينه وتشدّ من أزره .
كان مهيب الجانب ، أنيق الملبس ، وقوراً لا يتدنَّى ، يظل في وقار العلم ، وهيبة الفقه والأدب ، يألف الوحدة ويحبُّ التأمّل والفكر .
توفّي رحمه الله عقب صلاة الفجر يوم الاثنين 29 صفر 1356هـ الموافق 10 أيار 1937م ، بعد أن احتـل مركزاً مرموقاً في عالم الأدب نثراً وشعراً ودراسات ، بين مؤلفات ومقالات ورسائل وخُطب وقصائد وترجمته لبعض الشعراء والأدباء والشيوخ ، وتقريظه لبعض الكتب ، ومناظرات وملاحاة وغير لك .

الرافعي بين الوطنية والعروبة والإسلام

عندما ندرس حياة مصطفى صادق الرافعي تظهر قضيّة العروبة بارزة في فكره وأدبه ونشاطه . وتبرز كذلك الناحية الوطنية والناحية الإسلامية , ولكن تظلّ العروبة والقوميّة لها النغمة الأقوى ، وخاصّة في مواقفه واتجاهاته . فكيف برزت هذه النواحي في حياة الرافعي ، وكيف واءم بينها ، وهل عدل في ذلك ؟!

العامل الديني بين القوّة والضعف :

نشأ الرافعي نشأة دينية في بيت ملتزم بالإسلام ، كما ذكرنا قبل قليل . وبالرغم من ظروفه الصحيّة التي أثرت كثيراً في دراسته الرسميّة ، إلا أنه بذل الجهد الكبير لينال العلم من بيته ، ومن المكتبات التي أشرنا إليها سابقاً ، ومن الشيوخ والأساتذة الأفاضل الذين أعانوه ووجهوه . فنال بذلك علماً عزيزاً متميّزاً ، كما تميّزت موهبته وبان نبوغه .
إذن كان غذاؤه الأولُ الإسلام قرآناً حفظه ، ولغة عربيّة ملك زمامها وتمكن من علومها وآدابها ، وفقهاً تعلّمه ووعاه . فلا بُدَّ أن يظهر أثر هذا الزاد في سلوكه ومواقفه . لقد كان وقوراً لا يهبط ، صادقاً لا يكذب واضحاً لا يماري أميناً لا يخدع ، صريحاً في وُدِّه وخصومته ، وكانت هذه الخلال من أبرز آثار الإسلام فيه .
والدين الإسلامي منهج حياة يقوم على الإيمان والتوحيد ، ويلجم الشهوات ، ويضبط الغرائز ، ويُنير الدربَ لتتحدّد المواقف والآراء والعلاقات في جميع ميادين الحياة .
لقد كان من أبرز نواحي حياته الحبُّ والتأثُّر الشديد بالجمال والحُسن ، وقد كان له في ميدان الحب والجمال جولات واسعة امتدّت فترة غير قصيرة في حياته . والحديث فيها يطول ، ولكننا نشير إلى بعضٍ من ذلك الحب الذي فجرّ فيه مواهبه النثرية والشعريّة . فقد كان له بذلك قصائد كثيرة

عن الحب والجمال تزيد عن مِئتَي قصيدة في أربعة أبواب من ديوانه ، وفي مقالات نُشِرَت وكُتُبٍ صدرت مثل (أوراق الورد) و (حديث القمر) .
كانت له جولات من غدوات وروحات في مغاني الحسن والجمال ، ومراتع الحبّ الظامئ الذي يبدو أنه لم يرتو منها ، فلجم الإسلامُ غرائزه حتى لا يهبط إلى ساحة الفجور . وهذا أثر هام للإسلام في حياته .
لقد عاش لذعة الحب مع (العصفورة) التي رآها على جسر كفر الزيات ، فكتم اسمها ، وقال فيها قصيدته التي منها :

عصافيرُ يَحْسَبْنَ القُلـوبَ مِن الحَبِّ فَمَنْ ليْ بِهـا عُصْفورة لَقَطتْ قلبي

وفَرَّتْ ! فلما خافَتِ العَيْـنُ فَوْتَهـا أَدالتْ لَها حَبّـاً مِنَ اللؤلؤ الرطـب

وهذه أول قصيدة تُغنيها أم كلثوم [1] .
وامتدّ حبُّه إلى (هند) ، و (ماري) ، و (وهيبة) ، و (سونيا) ، وفي يحمدون في لبنان ، وعلى ربوة هناك ، عرف (ليلى) ، وهذا الحبُّ الذي أزهر على ربوة من روابي لبنان فوّح عبقاً نديّاً في كتابه الفريد : (حديث القمر) في عشرة فصول . وامتدّ حبُّه إلى (لبيبة هاشم) ، فتاة الشرق ، ثمّ مع الأديبة (مي) عاش حياة حب عفيفة [2]
كان الرافعي يحبُّ الحسن ويَنْبَهِرُ به ، ويعشق الجمال ويتيه في إيحاءاته . فلما دُعي إلى حفل تكريم ملكة الجمال (كريمان) ، ورأى جمالها فتاه فيه ، وانفلت منه الزمام وقال : (إني راضٍ عن سفور هذه بعينها لأنها أشبه بتسبيحة إلهية) [3]. وأعجب من أديب مرموق ، عُرِف أنه من حفظه كتاب الله ، فأصبح مسْتأمناً عليه ، كيف يعلن أنه راضٍ عن سفور فتنة تفتن الكثيرين ؟! وكأنه نسي الآيات من سورة النور التي تأمر المرأة ألا تبدي زينتها إلا لمن ذكرتهم الآيات ، وتأمر الرجل أن يغضّ من بصره .
بل إني أعجـب كيف يُدعى الرافعي الذي كتب (تحت راية القرآن)، إلى الاحتفال بملكات الجمال ، وكيف يُجيبُ الدعوة ؟! .
ولكنّ هذه القصّة وهذه التساؤلات تكشف لنا صورة من صور الواقع ، وامتداد فتنة الغزو الغربي ونجاحه في بعض الميادين ، وإطلاق حرية المرآة ، وتغيير كثير من العادات ، ذلك كله كان يُفترض أن يكون الرافعي ممن قاوم هذا التغيير وقد اعتبره بعضهم (الأديب الإمام) !
ونقف وقفة تساؤل عن الإغراق في الهيام ومتاهاته . إنها ظاهرة فريدة في حياة رجل نشأ نشأة دينية ظلَّ يحمل شعارها .

1- مصطفى نعمان البدري : 112 .
2- السابق : 112
3 - السابق 132 .

وقال يصف راقصة رآها وقد تآوّدت ، حتى لم تَرَ الأعين إلا سواد شعرها على أعطافها ، ثم لم يزل قَدُّها بعد ذلك يتقوّس ، حتى لاح للناظرين بدرُ وجهها ، فقال :

مـالـت دلالاً فـارتمـى شعرهـا كـالليلـة الظلمـاء أو شبههـا[1]
فلـم نـزل نرقـب بـدر الـدجـى حتى تجلّـى البـدر مـن وجههـا

وفي قصيدة أخرى يروي حادثة غراميّة لا قرار لها .

وقال أبياتاً في هيفاء تمشي على الحبل في (تياترو)[2] .

ومن مختلف قصائد الديوان نجد أن سرحات الغرام في حياته واسعة ، وأَن ميادينها متعدّدة ، فإن كان هناك غرام عفيف في ربوة من ربى لبنان ، فما الذي حمله ليرى الراقصة وليدخل (تياترو) ؟! كيف كانت حياته الاجتماعية ومدى انضباطها بالقرآن الذي حفظه والفقه الذي حمله . وامتداد الحبّ والغزل في حياته يكشف لنا عدد قصائده الكبير في ديوانه .

والأعجب أن ديوانه يشمل عدداً من القصائد في وصف الخمر ، فيقول في قصيدته من أربعة عشر بيتاً :

مِلْ بي عن الورد واسقني القدَحا فورْدُها من خُـدودِكِ افتضحـا[3]

وله في الخمر ومجالسها أكثر من سبع قصائد .

ومتابعة هذا الأمر يحتاج إلى حديث أطول ، ولكنَّنا نكتفي هنا بأن نقول إنَّ الانضباط بنهج كتاب الله وفقهه كان يشوبه تفلّتٌ لا يُرْضي الله ، ولا يغضب المجتمع كلَّه آنذاك .

ولكن كما قلنا فلأحوال المجتمع والغزو العلماني أثر كبير في ذلك . وقد تتغيّر العـادات ويتبدَّل السلوك ويتحوَّلُ الناس ، ولكنَّ ميزان الإسلام حقٌّ ثابت لا يتغيّر . إنه ميزان ربانيّ حقٌ لا يأتيه الباطل أبداً .

ولقد أصبح كثير من الناس لا يبالون بمثل هذه الأخطاء إِيثاراً للمتعة الفنيّة وزخرف الشكل .

وكان للإسلام آثار أخرى عليه برزت في بعض مؤلفاته مثل (تحت راية القرآن) أو (بين القديم والجديد) ، تحدّث فيه عن الجملة القرآنية (ص : 22) ، ونقدٌ لكتاب الشعر الجاهلي (ص : 129) ، مسلم لفظاً لا معنى (ص : 264) .

وتحدّث عن موضوعات الميراث (العربي) ، والأدب(العربي) وغير ذلك .

وظهرت كذلك تأثيرات الإسلام في محاولاته بعث التراث بالتعاون مع الشيخ محمد سعيد الرافعي صاحب المكتبة الأزهرية ، ومحمد سعيد العريان ، ومحمد زاهر البدري ، وغيرهم . ونلمس هذه الحميّة الإيمانية في

---

1 - ديوان مصطفى صادق الرافعي : المكتبة العصرية ـ بيروت : 1425هـ / 2004م : ص : 184 .

2 - الديوان : 183 .

3 = الديوان : 114 .

(رسالة الحج) وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، وغير ذلك من أبواب الجهاد بالكلمة والردّ على من يسمون أنفسهم بالمجدّدين أمثال : قاسم أمين ، وسلامة موسى ، ولطفي السيد ، وطه حسين ، وآخرين .
ونلمس تأثير القرآن الكريم والسنة النبوية في كتاباته بياناً وبلاغة مع قدرة متميّزة على توليد المعاني ، وتجديد التعبيرات ، وإيراد المقابلات والمتطابقات ، ومختلف أنواع البديع والبيان والبلاغة من استعارة ومجاز وتشبيه ، مما كوّن له أسلوباً خاصّاً في الكتابة لا تجده عند غيره ، حتى وصفه أحد الصحافيين بقوله : (إنه المختار لحراسة لغة القرآن) [1]
فمن الجليّ أن أوّل آثار القرآن الكريم في الرافعي هي اللغة العربية التي أحبها وعشقها ، وجاهد من أجلها ، وأطلق عبقريتها . فهي خط بارز في جميع كتاباته : أدباً نثراً وشعراً ، بياناً متميّزاً . ويكاد لا يكون هناك خلاف بين النّقاد على أن للرافعي أسلوبه المتميّز الذي اختصّ به ، فلا تجده عند سواه .
ومع ذلك ، فقد كان للنقاد بعض المآخذ والملاحظات مما لا داعي لعرضها هنا ، ولكننا نشير إلى بعضها : الغموض والإبهام أحياناً مما حجب المعاني عن قراء كثيرين انصرفوا عن تلك الكتابات . وأخِذ عليه استخدام كلمة تَدْوي بدلاً من تُدَوّي في قوله :

اتقوها فتنة سوف تَدْوي ببروق من جهلهم ورعود [2]

لا يكاد ينجو أي كاتب أو أديب من هناتٍ هنا وهناك ، وخاصّة إذا كان مكثراً . وكلمة تَدْوي كلمة درجتْ على ألسنة العامة ، وتسلّلت إلى بعض الكتاب والأدباء .
هذه بعض آثار القرآن والسنة في الرافعي ، في فكره وكتاباته ، في نثره وشعره ، وفي مواقفه من دعاة الفتنة وحرّية المرأة ومساواتها بالرجل ، والطعن في الإسلام ، فلقد كان الفارس المجلي في ذلك .
وردوده هذه تمثل باباً واسعاً في كتاباته ، وهذا باب يمكن الإطالة فيه حتى يبلغ كتاباً ، ولكننا نوجزها هنا على قدر هذه الكلمة .
و الإسلام لم يكن العامل الوحيد المؤثر في حياته وفكره وعطائه . فقد كان هناك عوامل أخرى تركت آثاراً واضحة .

العامل النفسي :

العامل النفسيّ كان له أثر كبير . العامل النفسيّ الذي كوّنته بيئته ومجتمعه وظروفه الصحية ، ومرض التيفوئيد الذي ألمّ به وآذاه ، فأنهك جسمه وأفقده السمع ، وتناوُبُ الأمراض بعد ذلك حتى انقطع عن الدراسة كما ذكرنا ، و عن الوظيفة التي رآها قيداً عليه وعلى طموحاته . وكأنه شعر أن هناك سدوداً في حياته وحواجز تخطاها بجهد دائب ، وعزم وتصميم ، وموهبة متميزة .

1- البدري : 111 .
2 - السابق : 470 .

أثّر ذلك كله في نفسيته فترك جروحاً يطوي آلامها ، وغضباً يكتم هيجانه ، وكأنه يُنفّس عن نفسه بحب الطبيعة والمروج والمناظر الجميلة ، وكثرة التأمل والنظر والتفكر ، وحبه الخلوة والانفراد . ولكن هذه كلها ولّدت في نفسه عزيمة لا تتراجع ، وتصميماً لا يقهر . فكان يقرأ يوميّاً ثماني ساعات ، ويتخطى ما يثيره صممه من عقبات ، بثقة ويقين .
ولا أشك أن هذه العزيمة ما ولّدها فيه إلا إيمانه المستقر في فطرته وقلبه ، فآمن بقضاء الله وقدره ، وآمن بأن عليه واجباً يجب أن ينهض إليه ومضى على دربه حتى كتب الله له البروز والتميّز في نواحٍ جليّة من الأدب واللغة . وجابه كبار رجال الأدب والفكر في عصره بين نقد وهجوم ، وودٍّ وألفة ، ورضا وخصام ، وبين مساجلات ومناظرات ، في أجواء يثور فيها التحاسد والتباغض . وبسبب هذه العوامل النفسيّة كلها ، كان شديداً عنيفاً في هجومه وفي نقده في قضايا أدبية وقضايا فكرية .
كان يشعر بينه وبين نفسه أنه طاقة وموهبة ، وأن عليه واجباً يودُّ الوفاء به ، ومسؤولية يجـب أن ينهض إليها ، ليس في ميدان القتال ، ولكن في ميدان القلم والكلمة ، فإذا كان هذا الشعور الذي عبّر عنه أحياناً أثارته الموهبة ، فإن هذه الموهبة غذّاها حفظه لكتاب لله وبيئته الدينيّة .

الواقـع وأثـره :

وحين دخل معترك الحياة بزاده الغنيّ ، وصحته المضطربـة ، وصممه المستديم ، رأى ميادين الواقع هائجة مائجة ، تموج فيها التغيّرات العاصفة ، والأحداث الدولية الكبيرة ، والحرب العالميّة الأولى وآثارها ، وسقوط الخلافـة الإسلامية ، وتمزّق العالم الإسلامي كله ، وغزو عسكري للعالم الإسلامي ، وغزو فكري وثقافي علماني ، وامتداد أثر ذلك في العالم الإسلامي والعالم العربي وفي مصر ذاتها ، ورأى مظاهر التحوّل السريع .
لقد ران على الشرق الإسلامي عهود من الوهن والتخلّف تركت فيه أمراضاً عديدة وأسواءً كثيرة . فلقد امتد الجهل بالكتاب والسنة وباللغة العربية بين الناس امتداداً واسعاً لفترة غير قصيرة ، واعوجّت الألسنـة باللهجات العامية وباللغات الأجنبية . ومهد ذلك إلى الغزو الثقافي الفكري والعسكري تحمله القوى الأجنبية ، وتحمله كذلك جموع العائدين من الابتعاث إلى أوروبا ، وقد اضطربت التصورات الإيمانية لدى بعضهم واختلفت لدى بعضهم الآخر ، فانقلبوا جنوداً للغرب وفكره ومصالحه ، يندفعون بجرأة يعلنون أفكارهم الجديدة ويقبلون التحدّي ويصرون على فتنتهم ، والغرب يغذّيهم ويمدّهم بأسباب القوة وبأبواب التوجيه .
ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها ، ولكنّ هذه الفتنة امتدّت إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي
ولا ننكر أن التركيز كان أولاً على مصر لأَهَمِيَّتها وأدوارها الهامة في التاريخ الإسلامي وقوة تأثيرها .

واضطرب الواقع الاقتصادي في مصر وغيرها ، واتسعت هوّة التفاوت الاجتماعي والطبقي ، وبرز نفوذ المرابين من اليهود وأعوانهم من بيوتات المال الأوروبية ، هذه البيوتات وهؤلاء المرابون أصبحوا يتمتعون بخيرات البلاد وينعمون بها ، ويظل الفلاح يشقى ويعاني في عوز وفاقة ، وصبرٍ وابتلاء .

ومما كان يزيد البلاء بلاءً زيادة الضرائب على صورة مؤذية .

وامتدّت هذه الحالة زمناً غير قصير ، ومازالت آثارها واضحة حتى اليوم ، وهي تتزايد وتتزايد فتنتها في المجتمعات الإسلامية ، منذ القرن السادس عشر حتى اليوم . وشهد القرن العشرون حربين عالميّتين أثرتا أسوأ التأثير على واقـع المسلمين ، وعلى مصر ، وعلى ازدياد نفوذ الغرب وإعلامه وفكره وثقافته وأدبه ، دون صناعته وسلاحه وعلومه . وتمزّق العالمُ الإسلامي كله قطعاً قطعاً تناثرت في الأرض ، واستقل بعضّها عن بعض ، ووقعت كلّها تحت نفوذ الأجنبي الغازي المعتدي والمحتل ، وأخذت كلُّ قطعة تتغنى بقوميتها . وظهرت شعارات كثيرة متصارعة ، وكان من أخطرها ما انتشر في بـلاد الشام والعالم العربي كلّه ، من نزعة " العروبة " التي نُظِمت لها الأناشيد ، والتي كان يُردِّدها الأطفال المسلمون في المدارس والمناسبات ، وامتدت هذه الأناشيـد في العالم العربي كله ، لتغرس في النفوس حركة " العروبة " مناهضة للدين بشكل صريح :

بـلاد الـعـرب أوطـانـي   مـن الـشـام لـبـغـدان
ومـن نـجـد إلـى يـمـنٍ   إلـى مـصـر فـتـطـوانِ
فـلا حـــدٌّ يـبـاعـدنـا   ولا ديـــنٌ يُـفـرِّقـنـا
لـسـان الـضـاد يجمعنا   بـغـسَّـان وعـدنـانِ
لـنـا مدنـيّـة سـلـفـتْ   سنُحْيـيـهـا وإِن درسَـتْ
ولـو في وجهنا وقـفـت   دهــاة الإنـس والـجـان

تغيّرت أسس المفاهيم الإسلامية بمثل هذه الأناشيد وغيرها من الأشعار والمقالات والكتب والجمعيات , وأخذت تمتدّ هذا الصيحة وتدوّي في جميع أنحاء العالم العربي ، صيحة العُروبة والقومية العربية !

ورافق هذه الصيحة المدوّية دعوات غربية أخرى ، يستفيد الزحف الغازي منها كلِّها ويغذِّيها بكل وسائله القوية الممتدّة . ومن أخطر هذه الدعوات قضية المرأةِ التي أخذ أصحابها ينادون أولاً بمساواتها بالرجل ، وثانياً بحريتها المتفلّتة ، لتخلع الحجاب وتنطلق في المجتمعات بسفورها وزينتها وفتنتها . واختلطت هذه الدعوة بفلسفات وأفكار متضاربة ، واستُغِلَّتْ في قضايا لا تتعلّق بالنساء ولا بالحياة الاجتماعية وإنما امتدت إلى السياسة وإلى دسائس ومؤامرات وأخطار كثيرة, واضطرب البيت المسلم ، وأخذت تتفلّت بعض عراه ، ويضعف دوره في بناء الأجيال المؤمنة ، ودوره في بناء الأمة المسلمة وحمايتها .

والناحية الأخرى إقبالُ الكثيرين من المسلمين على تقليد الغرب ابتداءً من اللباس وسائر المظاهر ، إلى مقاصف اللهو وحفلات الرقص ، وامتداد اختلاط النساء بالرجال وانتشار بيوت القمار واللهو غير البريء . وكذلك اعوجاج الألسنة باللغات الأجنبية , وانتشار الأندية والجمعيات والمؤسسات والمنظمات لتغذّي كلَّ مظاهر الانحراف عن الإسلام , تزيده انحرافاً وفتنة .

واختلط الفقه في قلوب الكثيرين ، وانطلقت شعارات كثيرة . وكلما نزل في الساحة قضية من قضايا هذه الفتنة يقف بعضهم منها موقف الرافض والمقاوم أولاً . ومع إصرار أهل الفتنة بدعوتهم يبدأ الرافضون يصمتون شيئاً فشيئاً ، ثمّ إِذا هم يألفون ذلك ، ثم يمارسونه ، ثم يصبحون من دعاته وجنوده وأنصاره .

وما زالت أمواج هذه الفتن يتبع بعضها بعضاً حتى يومنا هذا ، حيث نشهد التحوّل الكبير للمجتمعات الإسلامية ، التحوّل الذي بدأ بطيئاً استخفّ به الناس ، ثم أخذ يمْتدُّ ويشتدُّ على نهج وخطة واعية .

أمام هذه الفتن جاء الرافعي يحمل زاده وعلمه ويحمل أمراض جسمه ويحمل عزيمة وتصميماً ، فوجد في الساحة سلامة موسى الذي كان يدعو إلى العامية والأدب المكشوف والفرعونية ، وطه حسين صاحب كتاب " الشعر الجاهلي " ، ومدارس فكرية وأدبية وسياسية متعـددة ، ووجد الصراع الممتدّ الذي ملأ الندوات والصحافة والإعلام ، يخوضه الجميع كأنهم لا يدرون ما يُحاك للأمة من تدمير وهلاك . لقد جاء الرافعي في مرحلة تميز بها المجتمع المصري بالحركة الأدبيّة الواسعة آنذاك على صورة لم تشهدها مصر قبل . وشغل الأدباء وكثير من الناس بهذا الصراع الأدبي الشديد على صفحات الجرائد والمجلات وغيرها , والأعداء يعملون بهدوء وفق منهج مدروس , يستفيدون فيه من مثل هذا الصراع الذي لم يكن , كما يبدو, جزءاً من منهج عام وخطّة مدروسة تتسع على قدر اتساع ميدان المعركة .

دارت معارك شديدة بين الرافعي والمنحرفين والمجدّدين المفسدين من أمثال قاسم أمين وطه حسين ، وسلامة موسى ولطفي السيد ، وغيرهم ، في مقالات صحفية وفي كتب تصدر من هنا وهناك . ودارت معركة حامية بين الرافعي والعقاد في كتاب السَّفّود الذي أصدره الرافعي يهاجم به العقاد هجوماً مقذعاً .

العروبة والقوميّة العربيّة :

ولكن الرافعي وجد طائفة أخرى من الناس ، لهم دعوة غير الدعوات ، دعوة فكرية وسياسية ، دعوة (العروبة) و (القومية العربية) والمناداة بالخلافة العربية, يتولّى ذلك : جمال الدين الأفغاني ، ومحمد رشيد رضا ، ومحمد عبده ، وشكيب أرسلان ، ومحب الدين الخطيب ، يحاولون أن يجعلوها في صيغة إسلامية وتأويل إسلامي ، وكأنهم لا يدركون حقيقة الخطر الذي تمثّله هذه الدعوة ، وانحرافها عن صريح الكتاب والسنة .

لسبب أو لآخر انطلق الرافعي بدعوة " العروبة " ، فقامت بينه وبين محمد رشيد رضا علاقة تفاهم ، وكذلك مع الشيخ محمد عبده ، وآخرين . وربما حسب كلٌّ منهم أو بعضهم أنهم يخدمون الإسلام بذلك ، أو لا يحسبون ، فدخلوا في متاهات لا مجال لذكرها .

غضب الرافعي لسقوط الخلافة الإسلامية وقَطْعِ الصلة بين الأتراك والعرب فكتب عند ذلك :(يا غربة الإسلام في موطنه) [1] وبرزت عاطفته الإسلامية بصورة مباشرة وسلامة منهج .

ولكن نغمة (العروبة) عنده شيء أَساسي ، يرى في العرب قوماً متميّزين من غيرهم من الأقوام فضلاً . فلنسمع ما يقول في الفصل الثاني من كتاب (تاريخ آداب العرب) : (هم جيلٌ من الناس تَدلَّتْ عليه الشمسُ منذ القدم في هذه الجزيرة التي كأنها قطعة انخرطت من السماء مع الإنسان الأول ، فلا يزال أهلها أبعدَ الناس منزعاً في الحرّية الطبيعية .... سكان الفيافي وتربية العراء ، ينبسطون مع الشمس ويفيئون مع الظل ويطيرون في مهبّ الهواء ، بل أولاد السماء ، ما شئت من أنوفٍ حميّة ، وقلوب أبيّه ، وطباع سيّالة ، وأذهانٍ حداد ... (ثم يقول :) ... وقد أصبحت بقاياهم الضاربة في بوادي العربيّة ومصر وسورية لهذا العصر ، موضع العجب لأهل البحث من علماء الطبائع ، حتى أجمعوا على أنه لا نِدَّ لهذا الجنس في جميع السلالات البشرية ، من حيْثُ الصفاتُ التي تتباين فيها أجناس البشر خَلْقاً وخُلْقاً ، وحتى صرَّح بعضهم بأن هذه السلالة تسمو على سائر الأجيال بالنظر لهيئة القحْفِ وسعة الدماغ وكثرة تلافيقه وبناء الأعصاب وشكل الألياف العضلية والنسيج العظمي وقوام القلب ونظام نبضاته . فضلاً عما هي عليه من ملاحة السحنة وتناسب الأعضاء وحسن التقاطيع ووضوح الملامح .... [2]

ليته أورد مصدراً علمياً يثبت هذا التميّز من خلق الله كلهم . ولكن هذا التميّز كان قناعة ثابتة في قلبه ، حتى لم يعد يشعر بالحاجة إلى جمع أدلتها العلمية ومصادرها . وأعجب كيف غابت عن قلبه آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التي لم تميّز قوماً من قومٍ إلا بالتقوى :

1- الرسائل : هامش 194 ـ مصطفى نعمان البدري : 209 .

2 - تاريخ العرب ـ المكتبة العصرية بيروت . ط1 ـ 1420هـ (ص: 36) .

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)) (سورة الحجرات: 13).
والحديث الشريف في خطبة حجة الوداع : **((**أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربيّ على أعجميّ فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلّغت ؟ اللهم اشهد ! قالوا نعم . قال فليبلغ الشاهد الغائب **))** [1]
ولو نظرنا إلى الواقع الذي يعيشه العرب يومئذ ، وقد تقاسمتهم الدول ، وأذلّهم الاحتلال ، وانصرفوا إلى التقليد والتبعية ، والانحراف عن نهج الإيمان والتوحيد في صورة جماعات وأحزاب ومؤسسات ، فهل يجد الأنفة والأريحية ، وعزّة النفس ، وغير ذلك مما أخذ عليه فكره .
وهذه الصفات لا يريدها الإسلام في الإنسان كما توحي به ألفاظها تلك . فإن عزّة النفس والأنفة والأريحية قد يكون مبعثها جاهلية الطباع ، وعصبية الجنس ، وقد يكون مبعثها عزَّة الإيمان . وعلى ضوء فهمه هذا فقد جعل من القرآن الكريم " جنسيّة لغويّة " كما قال في إعجاز القرآن :
" إنما القرآن جنسيّة لغويّة تجمع أطراف النسبة إلى **العربيّة** ، فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً [2]
ولو قال : " إنما القرآن جنسيّة لغويّة تجمع أطراف النسبة إلى **الإسلام** ولا يزال أهله متميزين بهذه الجنسية ـ **الإسلام** ـ حقيقةً وحكماً ، ليكونوا أمةً مسلمة واحدة كما أمر الله سبحانه وتعالى ، لو قال ذلك لكان أقرب إلى التقوى والحقّ والعدل .
وفي الباب السابع من كتاب " تاريخ آداب العرب "، يتحدث عن الأندلس وعروبتها ، وعن مصرع العربيّة فيها ! ويقول : " ... ونحن نريد الآن أن نُبيِّن كيف صُرِعَت العربيّة فيها بعد أن صارعت طويلا ، فتأتي على تاريخها في تلك البلاد في الطفولة والكهولة [3]
ويقول :(ولما رأى المسيحيون الأحرارُ أناةَ العرب..[4]ثم يتحدَّث في الصفحة (297) من الكتاب عن ترجمة (الفلسفة العربية) في أوروبا .
ويقول في سياق الحديث : (... وأسَّس مدرسة طليطلة الثانية التي كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية فنون) الحضارة العربيَّة (و) العلْم العبراني) . [5]
ولكنه في الوقت نفسه يذكر بين حين وآخر كلمة الإسلام أو المسلمين في هذه الموضوعات دون أن تشعر أنها هي محور الحديث وأساسه ، بل القوميّة العربيّة . فلا تدري ما هي الحضارات العربيّة ؟! وما هي العروبة ، وتظلّ تشعر أن العروبة والقوميّة العربيّة هي المحور الأساسي لديه .

1 - أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ، ج1 / 157 .
2 - الرافعي ـ إعجاز القرآن : 47 .
3 - الرافعي : تاريخ آداب العرب : ج3/293 .
4 - الرافعي ـ إعجاز القرآن : 47 .
5 - الرافعي : تاريخ آداب العرب : ج3/293 .

واعتبر جريمة النَّصاري في الأندلس وتنصيرهم للمسلمين عبارة عن (تنصّر العربيّة) ، عنواناً لفصل في كتابه (تاريخ آداب العرب)[1]

وإن امتداد هذه المصطلحات حول العرب والعروبة ، ربَّما أوحت إلى بعضهم أن منزعه الحقيقي قوميّة عربيّة ، حتى تجد أن مصطفى نعمان البدري خلص من دراسة الرافعي إلى أنه يدعو إلى القومية العربية ، فيقول عنه :

كان يتحرَّى **القيمَ القوميّة** يُثَبِّتُها في صور الحياة من الاجتماع الإنساني ، يصف فيها المفكِّر الفيلسوف في أحلامه وآرائه ، وكذلك كان في (حديث القمر[2] فهل حقّاً ما جاء في (حديث القمر) من خصائص وصفات ، وفي الفصل الثامن منه بالذات ، كان (للقيم القوميّة العربيّة) ؟![3]

ويقول (البدري) كذلك : (ويتصوَّرُ الإنسانَ العربيَّ في رجولته وضميره ودمه الكريم كيف يُحبُّ ويعشق وتبدله ...) . ويقول : (ذلك أن محاولة بَعْثِ العربيّ بخصائصه القوميّة وشمائله الإنسانيّة ، وسجاياه وإعداده للحياة في سموّ الحبّ ، وامتثالٍ في الصدق ... كانت اللازمة الفكريّة الوثقى لموضوعات أدبه وفنّه)[4] وينْقُل البدري عنه قولته المشهورة : (وما أراها إلا ستنهض في مصر والشام نهضةَ من يستجمع ـ تأملْ ـ وربّما شهد الناسُ دهراً يصلح أن يُسمّى فيه ما بين العراق والأطلنطيق (جمهورية اللغة العربية) ، وما هو ببعيد[5] ويتابع (البدري) ويعلّق : وقد أضحت اليوم شعارَ القوميّة العربيّة ، وميدانَ جهادها ، وهدفَ كفاحها ، ونضالها عن قيمها الموحّدة وإشراق دولة العرب[6] ويقول أيضاً : (بعد نكبة الأمة في الحرب الأولى وضياع سلطانها القوميّ ، وتوزُّع ديارها أسلاباً بين أيدي المستعمرين والمغامرين أدرك ما يعوز الأمة في ذلك الصراع المرير ، وهو القوّة، بل خوارق القوّة ،...، فكتب في نوادر القوّة عند العرب صفحات جُلّى فيها شواهد في تاريخهم ... وكان لهم من الإقبال على الحياة بالاستشهاد تلك المواقف والبطولات في معاركهم التاريخية وفتوحهم التي جعلت وجه الأرض عربيّاً فكان بعد الذلّة أبيّاً[7] غابت عن الرافعي ألفاظ الفتوحات الإسلاميّة ، والحضارة الإسلاميّة !

ولقد تأثَّر الرافعي بما توهّمه من إنزال الإمام الشافعي اللغة العربية منزلتها الأمينة ، فاعتبرها الأساس البياني للاعتقاد " القوميّ " فكرة وهدفاً[8] لا بأس أن يُنزل الإمام الشافعي اللغة العربيّة منزلتها الأمينة ، ويبيّن

---

1 - المرجع السابق : ص: 294 .
2 - المصدر السابق : ص: 297 .
3 - حديث القمر : (63ـ 70)
4 - د. البدري : ص : 430 .
5 - الهلال شباط 1920م ـ 400 ، د. البدري 433 .
6 - البدري : 433 .
7 - د. البدري : ص : 432 .
8 - د. البدري : 540 .

أهميّتها في فهم الكتاب والسنّة للوصول إلى سلامة الاعتقاد الإيماني ، وليس إلى الاعتقاد القومي . وهذا نموذج واحد على تحويل بعض الألفاظ أو الأفكار الإيمانيّة إلى النهج القومي . وقد شاع هذا الأسلوب لدى الحركات القوميّة والبعثيّة في بلاد الشام وغيرها .

وقد أعجب ميشيل عفلق بالرافعي ونزعته العروبيّـة ، فالتقطهـا " الرفيـق " وقال : " كان محمد كلَّ العرب فليكن كلُّ العرب محمداً [1] حتى ذهبـت مثلاً للدعوة القومية . لا شكَّ أنها أُسلوب ماكر خبيث حين حصر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بالعرب وليس بالبشرية كلّها . ولكنّها جملة جذّابة تُغري ولا تُغني ، وتَهدِم ولا تبني .

لا يختلف اثنان من المؤمنين حول منزلة اللغة العربيّة التي لا تضاهيها منزلة أيّ لغة أخرى . ولكن العروبة شيء آخر ، إنها اسم لقوم أعزّهم الله بالإسلام وباللغة العربيّة وبالنبيّ المبتعث برسالـة الإسلام للناس كافّة ، ليُصبِحُوا كلُّهم أمةً مسلمةً واحدة ، مسلمين عزَّتُهم بالله ورسوله وبالمؤمنين ، وبرسالة الإسلام . العروبة صفة لقوم لا لفكر أو نهج . والإسلام دينٌ ومنهج حياة متكامل ، ورسالة المسلم في هذه الحياة الدنيا . ولقد صاغ الإسلام جميع الروابط صياغةً إيمانيّة تَزول عنها العصبيّات الجاهليّة وتُنَقَّى منها ، حتى تَصُبَّ بركتها وخيرَها للناس جميعاً ، وحتى تترابط كلّها فيما بينها برباط الإيمان وأُخوته .

وامتدت (العروبة) ومشتقاتها على لسان عدد غير قليل من المسلمين شيوخاً وأدباء وسياسين ، وأخذوا يؤولون الآيات والأحاديث تأويلاً فاسداً . وتبدّلت المصطلحات ، وانقلبت الأفكار وتقلّبت ، واختلطت المفاهيم ، حتى صرنا نسمعُ : الدين العربي ، الحضارة العربيّة ، الفلسفة العربيّة ، متجاهلين دور الشعوب المسلمة غير العربيّة ، الشعوب التي آمنت فساهمت بإعزاز الإسلام وبخدمة اللغة العربية وعلومها وآدابها من خلال أمّةٍ مسلمة واحدة .

إنَّ دولاً كثيرة تنفق الملايين حتى تكسب شعوباً أخرى تنضمُّ إليها ، ونحن ـ المسلمين ـ قيّض الله برسالة الإسلام شعوباً كثيرة تهرع إلينا وتجاهد معنا ، ونحن نصدّها ونصرفها ونقطع الحبال معها . عجباً كلّ العجب !

لقد تحدّثنا بإيجاز عن الناحية " الدينية " والناحية " العربيّة " في فكر الرافعي وأدبه واتجاهه . نشير الآن إلى الناحية الوطنية .

▪

1 - د. البدري : 139

الاتجاه الوطني :

أما الناحية الوطنية فما قصّر الرافعي عنها . لقد كان للرافعي وجهة نظر ورأي في السياسة جعله يفقد الثقة بالأحزاب جملة . وقد عبّر عن ذلك قوله بقوله:

فَيا عُصْبة الأحزاب رُدُّوا حُلُومَكُمْ وجـرُّ على غير الثـرى بـذيـولِ

ولكنه أشار إلى(دعوة مصطفى كامل والحزب الوطني لإقامة " الجامعة " في فكرة وطنيّة انشقّ لها مكانها في التاريخ)[1]

والوطنيّة امتدت في عطاء الرافعي فقد دافع عن مصر (العربيّة) وقيمها العربيّة كما صوّرها لنا ، كما أشرنا إليها في صفحات سابقة . ويمكن اعتبار هجومه على طه حسين وقاسم أمين ولطفي السيد وسلامة موسى ، ومحاربة مبادئهم الفرعونيّة العلمانيّة دفاعاً عن مصر ، ودفاعاً عن " العروبة " ودفاعاً عن الإسلام .

ولكن مديحه لجناب العالي الخديوي يهنئه بعيد جلوسه على الأريكة الخديويّة سنة 1903م ، صورة من صور التفاعل الوطني حسب معتقده الوطني والقومي . وبعض مدائحه الأخرى قد تكون كذلك . وكذلك تقريظاته الشعريّة .

الأناشيد التي أطلقها تحمـل الروح الوطنيّة الصافية والعاطفة الصادقة .ومنها نشيد : (اسلمي يا مصر) ، ونشيد (حماة الحمى ...)(ونشيد: (لكِ يا مصر السلامة ، وسلاماً يا بلدي). وللرافعي مجموعة دواوين أُميط اللثام عن أسمائها ولكنّها لم تَرَ النور ، وهي (أغاريد الرافعي)ومجموعاتها الثلاث ، تدور حول ترقيص الأطفال ، والأناشيد الوطنيّة ، وبعض قصائد الموشحات [2]

وكذلك مقالاته في " الأخبار " كتبها خلْواً من التوقيع ، أو بأحرف من اسمه. وامتدت مقالاته الوطنية حرارةً وقوة ، وساهم في أنشطة وطنية صافية . ثم لوحظ عليه الانكماش ، بعد ما رأى من صراع الأحزاب وانشقاق صفوف الجماهير ، وافترق الحركة المصريّة .

ولقد كان من بين مقالاته مقالته في أحوال العرب حين ترتبط وكنيّته بالعرب والعروبة ، يقول فيها :

التاريخ كلّه دليل على أنَّ العرب مادة كريمةٌ في عنصر الإنسانيّة ، وقد خصّهم الله بإقليم وطبيعة لم يُخصَّ غيرهم بها ، فخرجوا من أثر هذا الإقليم وهذه الطبيعة وهم أكرم الخلقِ غريزةً وطبعاً ... [3]

---

1 - البدري : 207 .
2 - ديوان الرافعي تحقيق د. ياسين الأيوني ـ ص : 321 .
3 - البدري : 144 .

ويقول مصطفى نعمان البدري : "وقد حفلت حياتُه الشعريّة بموافقات طريفة في موضوعات العروبة والقومية والوطنيّة ... [1] ويستشهد بالقصيدة الوطنية التي مطلعها :

بـلادي هواها في لساني وفي دمي يمجّدهـا قلبي ويدعو لها فمـي [2]

ويعلّق البدري على هذا البيت بقوله : وقد جمع في البيت عطاء " القوميّة " حقّها وفاءً وكرماً " .

فلمَّا انتهت الحرب العالمية الأولى ، وتقاسم الغرب أجزاء العالم الإسلامي، " وظهرت بوادر المقاومة هنا وهناك ، وفي مقدّمتها مصر ، حتى كان الرافعي لسان الأمّة المناضلة عن قيمها وكرامتها بأدبه وفنّه ، وقد رفع لها أكثر من شعار [3]

وله عدّة أناشيد ، كما ذكرنا أعلاه بعضها ، ومنها نشيده الأثير : (اسلمي يا مصر) ! وهو نشيد وطني ، ولكننا نردّده ، وندعو لمصر وسائر بلاد الإسلام بالسلامة . وأناشيد أخرى سبق ذكرها .

وله نشيد آخر : (يا شباب العالم المحمدي) الذي كان صرخة تدوّي بها دماء المؤمنين ، وتطير به أشلاؤهم .

والنشيد الآخر : (حماة الحمى) الذي أضحى نشيد الناس في مصر وخارج مصر ، شرَّق إلى بلاد الشام والعراق ، وغرَّب إلى تونس والمغرب . فكان صوتُه بهذه الأناشيد وبكثير من قصائده وروائع شعره صرخاتٍ إيقاظٍ وتنبيه .

ومن هذا العرض الموجز هل وُفِّق الرافعي في اتجاهاته ومواقفه إلى الالتزام الأمين المتوازن ؟! إنَّ الإسلام لم يُلغِ الروابط البشريّة ، ولكنّه ألغى أن تكون عصبيّة جاهليّة ، وأعاد صياغتها لتقدم الخيرَ ولتحمل الصورة الإنسانيّة التي يتعذّر وجِودُها خارج الإسلام .

وإني أشعر أنَّ الرافعي ربط مفاهيمه للإسلام ووطنيّته بالعروبة ، وكنت أتمنّى لو ربط وطنيّته وعروبته بالإسلام ، كما يريدها الإسلام أن تكون ، ليكون الإسلام مصدر عزَّتنا وسبب قوّتنا ومصدر نهجنا .

---

1 - البدري : 539 .
2 - الديوان : ص: 89 .
3 - البدري : 126 .